

الأورداليا والبُشة والقرعة وانتزاع الاعتراف بالتعذيب

لماضرة الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي

من أهم ما ترمى إليه المجتمعات الإنسانية من العقوبات التي توقعها على مرتكبي الجرائم أن تظل حدودها بمأمن من الاعتداء ، وتضمن نظمها ، ويتوطد ما لها في النفوس من قدسية وجلال ، ويزول من طريقها كل ما يعوق سيرها من عقبات ، ويشتد الحرص على تحقيق هذه الأغراض كلما كان الجرم خطيراً في نظر المجتمع ، ولذلك اتسع نطاق المسؤولية في هذا النوع من الجرائم كل الاتساع ، حتى إن بعض المجتمعات لتعاقب فيها على مجرد النية ، أو على مجرد الحدث بدون قصد ، أو على مجرد الملابس للجرم في صورة ما ؛ بل إن بعض المجتمعات لتأخذ فيها بالظنة والشبهة ، وتحاول على إثباتها بطرق غريبة لا تدل في ذاتها على شيء ، ولكنها تعيد للمجتمع هدوءه وتحقق زجر الغير ، وترهب الأفراد ، وتشعرهم بصرامة المجتمع حيال هذه الجرائم ، وقسوته على مرتكبيها ، وحرصه على الثأر ممن تسول له نفسه ارتكاب مثلها ، وتبعد من أذهانهم احتمال غفرانها أو التساهل فيها .

ومن هذه الطرق الغريبة التي تلجأ إليها بعض المجتمعات في الجرائم الخطيرة تعيين مرتكبيها وإنزال العقوبة بهم ما يسمونه بطريقة « الأورداليا » ، Ordalie (كلمة مأخوذة من الانجليزية - السكسونية القديمة - وكان معناها في الأصل الحكم على الإطلاق ، ولكنها استعملت في نوع خاص من الأحكام ، وهي الأحكام التي يطلقون عليها اسم « الأحكام الإلهية » ، أو « الامتحان الإلهي ») التي أخذ بها في تحقيق هذا النوع من الجرائم كثير من الشعوب المتحضرة في العصور القديمة ، ومن بينها

الشعب اليونانى نفسه فى أرقى عصور نهضته ، وأخذت بها الأمم الأوروبية المسيحية فى العصور الوسطى وصدر العصور الحديثة فى جرائم السحر والإلحاد وما إليهما من الأمور التى كانت تعد حينئذ من كبار الذنوب ، وذلك أنه كان يؤتى بقطعة من حديد فتحمى حتى تصير ناراً ويكلف المتهم أن يقبض عليها بيده ، أو يكلف المشى على جمر الفحم الحجري ، أو يضع يده فى الماء وهو فى درجة الغليان ، فإن أصابه ضرر من هذه الأمور دل ذلك على إدانته ؛ وإن نجا منها فأصبحت النار والمياه الغالية برداً وسلاماً عليه كان ذلك آية على برائه ؛ ولكن هيات كان يحدث هذا الإعجاز ! وأحياناً كانت تلف يده بعد ذلك بضاد وتختبر بعد ثلاثة أيام ، فإن قام فى أذهان المحققين أن الحرق فى طريق البره دل ذلك على براءة المتهم ، وإلا ثبتت إدانته .

* * *

ومن هذه الطرق الغريبة كذلك طريقة «البشعة» - بضم الباء أو كسرهما وسكون الشين - التى تسير عليها بعض القبائل العربية فى الشام ومصر ، وخاصة من يسكن منهم محافظة الشرقية (قبائل المعازة والدراجين والعيادة والحويطات... الخ) فى تحقيق الجرائم الخطيرة كالقتل وما إليه . وذلك أنه يؤتى بطاس من حديد ويحمى حتى يحمر ويصبح كالجر ، ويكلف المتهم أن يلغقه بلسانه ، ويتناول جرعة ماء يتمضمض بها بعد ذلك ، فإن أحجم عن لعق الإناء أو لعقه وأصابه منه ضرر اعتبر مديناً ، وفى كلتا الحالتين يعرض أمره على المحكمين ليقتضوا فى شأنه بما يرون وفقاً لعرفهم القضائى . وأما إذا لعق الإناء ولم يصبه منه ضرر فإنه يعد بريئاً .

ويشرف على هذه الإجراءات إخصائى يسمى «المبشع» - بكسر الشين المشددة - ويعتقدون أنه لا يوجد فى القطر المصرى إلا مبشع واحد ، وأن هذه الوظيفة قد آلت إليه بالوراثة ، وأنها تنتقل منه إلى أكبر أفراد أسرته سنأ... وهكذا ، وأن بجسمه هو حصانة ورائية تجعل النار برداً وسلاماً عليه ، حتى لقد جرت العادة أن يمسح المبشع نفسه الطاس الحميه بيده قبل أن يقدمها للتهمة بدون أن يناله أى ضرر من هذا المسح .

ويجرى التبشيع عادة في حفل يشهده المبلشع والمحكون وطرفا الدعوة (المتهم والمجنى عليه أو ولي أمره) وعدد من أقربائهما ، ويحضره كذلك شاهد للطرفين يسمى « سامعة » ووظيفته تقرير أقوال الطرفين وتلخيصها ، والشهادة بما يعرفه وما يستنتجه ، ويتقاضى « السامعة » أجراً على شهادته ، كما يتقاضى المبلشع نفسه أجراً على عمله « يقدر أجر المبلشع عادة لدى قبائل العرب في الشرقية بخمسة جنيهات على كل منهم » .

ويظهر أن هذه الطريقة قد دخلها كثير من الغش والحيلة في أعمال المبلشع ؛ حتى إنه ليقال إن في إمكانه أن يدبر لمن يتحيز إليه من المتهمين لسبب ما بعض وسائل للنجاة من أضرارها .

* * *

ومن هذه الطرق الغريبة كذلك طريقة « القُرعة » التي أخذت بها طائفة من الأمم في بعض الجرائم الخطيرة . ففي حالة الاشتباه في الجرم ، وعدم استطاعة الاهتمام إليه بالذات ، كانت تضرب القرعة بين طائفة من المشتبه فيهم ، فن أصابته منهم وقع عليه الجزاء ، وقد أخذ بطريقة القرعة بعض المذاهب الإسلامية نفسها في تحقيق بعض الجرائم ، فذهب الشيعة الجعفرية أو الاثني عشرية (وهو المذهب الذي يدين به معظم سكان إيران ونحو ثلث سكان العراق وبعض جماعات في الأحساء وسوريا ولبنان وغيرها) يقرر في حالة قربان إنسان لبهيمة ، أنه يجب ذبح البهيمة وحرقها ويحرم لحما ولحم نسلها بعد الوطأ إن كانت مأكولة اللحم ، ويجب بيعها في بلد آخر ويتصدق بثمانها إن كانت غير مأكولة اللحم ؛ وأنه إذا لم يقيم دليل قاطع على تعيين البهيمة التي لابسها هذا الجرم ضربت القرعة على البهائم المشتبه فيها ، فإصابتها القرعة من بينها تعتبر البهيمة المقصودة وتتخذ حيالها هذه الإجراءات (انظر كتاب « أصل الشيعة وأصولها ، للرحوم الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء رئيس الشيعة بالعراق ، الطبعة الثانية ص ١٥٨) .

* * *

ومن هذه الطرق الغريبة كذلك طريقة « انتزاع الاعتراف بتعذيب المتهم » التي سار عليها في تحقيق بعض الجرائم الخطيرة عدد كبير من الأمم في مختلف العصور، ومن بينها الأمم الأوروبية المسيحية في العصور الوسطى والحديثة، وخاصة في « عاكم التفتيش Inquisition » الشهيرة التي أنشئت في كثير من البلاد الأوروبية لمحاربة جرائم الإلحاد والردة والسحر وما إليها من جرائم العقيدة، وظلت قائمة حتى أوائل القرن التاسع عشر. بل إن الكلمة التي تدل على معنى السؤال أو الاستجواب في كثير من اللغات الأوروبية Puestion تحمل في مدلولها القديم معنى التعذيب، بل لا تزال تحمله في هذه اللغات إلى الوقت الحاضر. وذلك أن الاستجواب كان يصحب غالباً بالتعذيب لانتزاع الاعتراف - وتقضى طريقة التعذيب هذه أن يسام المتهم مختلف أنواع العذاب حتى يعترف بالجرم - وكان القضاة أنفسهم هم الذين يشرفون على ذلك، وكان الأمر ينتهي بالمتهم في الغالب إلى الاعتراف صادقاً كان أم كاذباً ليتخلص مما يسامه من عذاب، وفي بعض الأحوال ما كان ينتظر اعترافه الصريح لإثبات إدانته، بل كان يكفي في ذلك علامات تافهة كتلجلج صوته أو تقطع نبراته أو اضطراب حديثه أو تفكك عباراته أو إجحامه عن الكلام. وقد بقي لهذا النظام بعد إلغاءه رواسب كثيرة في عدة شعوب، وخاصة في تحقيقات البوليس.

وبعض الشعوب البدائية كانت تلجأ لتعذيب أسرى الحرب لانتزاع اعتراف منهم بخطتهم وضعفهم وقوة قاهريهم، ومن هؤلاء عشائر « الأباش » من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية، فقد بلغ هؤلاء في تفننهم وقوة ابتكارهم لألوان التعذيب التي كانوا يصبونها على الأسرى لهذا الغرض درجة منقطعة النظير تشهد بخصب خيالهم وسعة حيلتهم، أو بالأحرى بخصب خيال نسايمهم وسعة حيلتين، فقد كان يعهد بذلك النساء، وكن يؤدينه على أعنف وجه، وأشد قسوة، وأدناه إلى طبائع الوحش والافتراس، وكان الباعث الرئيسى على هذا التعذيب أن ينتزع من الأسير، من شدة مايسامه من الخسف، اعتراف بخطئه وخطأ عشيرته وضعفهم وقوة قاهريهم، وذلك أن قهر الأسير ما كان يتحقق في نظرهم إلا إذا ظهرت

عليه الذلة والمسكنة والانهيار ، فاعترف بخطئه وخطأ قبيلته وضعفهم ، وعدم قدرته على احتمال ما يحتمله الكفاة من الرجال ، أو طلب الرحمة من أسريه ، غير أنه كان من المتعذر في الغالب أن ينتزع من الأسير اعتراف من هذا القبيل مهما بولغ في تعذيبه ، فقد وصل هؤلاء البدائيون في اعتزازهم بأنفسهم وعشائرتهم وترفعهم عن الظهور بمظهر الذلة والعجز وقدرتهم على احتمال الآلام إلى درجة لم يكذب يصل إلى مثلها أو ما يقرب منها أى شعب آخر من شعوب الأرض ، ولعل صنوف العذاب التي كان لزاماً أن يذوقها كل واحد منهم مختاراً في أثناء مرحلة التعميد الديني هي التي كان لها الفضل في بث هذه النزعة في نفوسهم ، وفي تدريبهم على قوة الاحتمال ، وفي مبلغ ما وصلوا إليه في الاستخفاف بآلام الجسم والاستهانة بما يصيبه من نكال ، فقد كان الأسير يشد وثاقه إلى سارية ، وتصب عليه أسواط العذاب من كل صنف ، ويأتيه الموت من كل مكان ، بدون أن يفتر لسانه عن ترديد أغنيات حماسية خاصة بهذه المناسبات تسمى « أغاني الموت » ، يعدد فيها مناقبه ومناقب عشيرته ، وما أثر عنه وعنهم في ميادين الوغى من شجاعة وإقدام ، ويزهو بأنه لم ير بعد من هو أقوى منهم في شئون الحرب أو أشد لها مراساً ، ويستخف بأسريه وبما يسومونه إياه من عذاب ، وكلما زادوه نكالا زاده هذا إمعاناً في زهوه وتحقيره إياهم ، فينتهي بهم الأمر إلى اليأس من أن ينتزعوا منه ما كانوا يريدون انتزاعه من اعتراف صريح بالضعف ، حينئذ يقنعون بما دون القليل ، ويودون لو صدر عنه اعتراف ضمني بذلك في تأوّه أو رعشة ألم ، وحتى هذا الاعتراف الضمني ما كانوا يستطيعون في الغالب سبيلاً إلى الحصول عليه ، فقد كان الأسير يقطع إرباً إرباً بدون أن يفتر لسانه عن التغنى بشجاعته والتهكم بأعدائه ، فتتجه جهودهم كلها حينئذ إلى العمل على إسكانه بأية وسيلة ، وحتى هذه الغاية السلبية ما كانوا يستطيعوا في الغالب سبيلاً إلى تحقيقها إلا إذا انتزعوا لسان الأسير انتزاعاً من بين فكيه .

* * *

هذا إلى أنه ليس بلازم في الجرائم الخطيرة أن تكون قد حدثت بالفعل ،

ولنما يكفي أحياناً أن يكون قد خيل إلى المجتمع أنها حدثت ، وأن حياته يتهددها من جراء ذلك بعض الأخطار ، وأنه في حاجة إلى أن يستعيد هدوءه وطمأنينته على نفسه ، ففي مثل هذه الأحوال يندفع مطالباً بالقضاء على من تحوم حولهم الشبهات ، أو من يكونون موضع سخطه واشمئزازه : كالفرد تنبعت حركاته المنعكسة في الخوف كلما خيل إليه أن خطراً يتهدده ، ولو لم يكن هناك أى خطر في الواقع ، فكثيراً ما يخيل إلى الشعب أن ثمة خيانة وطنية ، أو مؤامرات غدر ، أو تجسس لدولة معادية ، أو استغلالاً سيئاً للسلطان ، فيندفع مطالباً بروس الخونة والجواسيس والطغاة والمستغلين ، وتجد محاكمه كثيراً من كباش الفداء ؛ مع أنه لا يكون هناك في الواقع خيانة ولا مؤامرة ولا تجسس ولا طغيان . ومن هذا القبيل ما حدث في أوروبا المسيحية في أواخر العصور الوسطى وصدر العصور الحديثة ، إذ خيل إلى رجال الدين أن السحر قد نشط من عقاله ، وأن خطراً داهماً يتهدد العقيدة الدينية من جراء ذلك ، مع أنه قد ثبت فيما بعد بالتحقيق التاريخي أن هذا كان مجرد وهم ومحض خيال ، ولكن ذلك كان كافياً في إثارة المجتمع وخوفه على دينه ، ففشأت تلك القضايا التي اشتهرت في التاريخ باسم « قضايا السحر » ، والتي استأثرت أمداً طويلاً يزيد على القرنين (من الخامس عشر إلى أواخر السابع عشر) بنشاط رجال الدين الذين كانوا مسيطرين حينئذ على جميع شؤون الحياة ، وقد ذهب ضحية هذا الوهم آلاف من الخلق يتألف معظمهم من النساء ، لأنه كان يظن أن جنسهن أكثر استعداداً لارتكاب هذه الجرائم من جنس الرجال .